الوثيقة

دورية تاريخية محكمة
يصدرها مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد السادس والثلاثون - السنة الثامنة عشرة
ربيع أول ١٤٢٠هـ - يوليو ١٩٩٩م

وداعاً

يا أغلى الناس .. وأحكم الناس .. وأعز الناس

في مكان بالأحساء الحالية عندما هزمت بنو فقر كلاً من بني الربيع وبكر بن وائل[٢١] . ثم يوم ذي طلوح سمي نسبة إلى موقع يقع على الأرجح في منطقة الخليج العربي بين بطون من بني يربوع من جهة وبكر بن وائل من جهة أخرى . نتيجة مشادة بين عميرة بن طارق من بني يربوع مع أخ زوجته أبجر بن جابر من بني عجل (بطن من بكر) .

ويوم الأياد (سمي يوم العظائي أيضاً) نتيجة هجوم بطون من بكر بن وائل على بطون من تميم عند موقع الأياد في الغالب بمنطقة الخليج العربي . ثم يوم الغبيط عند موقع الغبيط بمنطقة الخليج باتجاه اليمامة . وكان السجال نتيجة غزو بسطام الشيباني ومعزوق بن عمرو مع جماعة من شيبان لبلاد من تميم وكانت خسارة للشيبانيين . ويوم قشاوة عندما غزا بسطام من بني يربوع مع جماعة من بني شيبان وكان الفوز للأخيرين . ويوم زبالة عندما أغارت جماعة من تميم برئاسة شخص اسمه الأقرع على بكر بن وائل الذي لم تفلح به تميم . وموضع زباله ربما بين الكويت والأحساء . ثم معركة مبايض بين شيبان من جهة وتميم من جهة أخرى وكان النصر النهائي للأخيرة[٢٢] .

ومن المعارك المهمة يوم الزويرين بين بكر بقيادة عمرو بن قيس بن مسعود الشيباني من جهة وتميم من جهة أخرى، وقد دفعت تميم ببعيرين بمياه الزويرين (الزورين) في وسط المعركة وأخذوا يدورون حولهما تعبداً . وأحضرت بكر برجل مسن منها يدعى الأصم كانت تحترمه ووضعوه مقابل الزويرين . وقد انتصرت بكر وذبحت البعيرين . ثم معركة الشيطين (الشطين) وقعت بمنطقة الخليج في الطريق إلى اليمامة والشيطين واديين أجدبا فهجرتهما بكر بن وائل إلى العراق وسكنت مكانهم بطون من تميم . وحدث أن أخصب الشطين وأجدبت أراضي بكر في العراق فتوجهت لاسترجاع أراضيها الأولى من تميم وكان النصر حليف بكر . أما معركة ذي نبجي فكانت بين تميم من جهة وبني عامر من جهة أخرى وكان النصر حليف تميم[٢٣] . ثم المعركة بين قضاعة وكندة بقيادة رئيسها حجر آكل المرار عندما هجمت الأخيرة على البحرين وكان النصر في البداية حليف قضاعة فسبي نساء كندة التي كانت

أوال . واستمر وجود القرامطة في عصر ابن حوقل[11] الذي ذكر بقايا نسلهم من أبي سعيد وكانوا نحو أربعمائة نسمة بين رجل وامرأة، وهذا يعني وجود الفرس في البحرين، لأن أصل القرامطة يعود إلى مدينة جنابة[12]، وهي مدينة تقع على الساحل الشرقي للخليج العربي، وعرف كل من أبي سعيد الحسن بن بهرام وولده أبي طاهر سليمان بـ : الجنابي، نسبة إلى مدينة جنابة[13]، واتخذ القرامطة أيضاً الاحساء وهي قصبة هجر مستقراً لهم، وهم آل أبي سعيد الجنابي، كما اتخذوا من جزيرة أوال وسائر المدن على البحر أو القريبة منه مستقراً لهم[14]، وعدت هجر من ديار القرامطة، ومقامهم في دارهم[15]، وذكر ابن حوقل[16] بعضاً من رسومهم منها "ركوب مشائخهم وأولادهم فرادى فيجتمعون إلى قبلة الاحساء بالمكان المعروف بالجرعاء، ويلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم وينصرفون أفذاذاً بغاية التواضع، وقد لبسوا البياض لا غير . وكان من رسومهم أن تقع سوراهم بالجرعاء فيمن يخرجونه لما فدحهم وأهمهم، فإن اتفق رأيهم على خروجهم بأجمعهم لم يتخلفوا ونفذوا وتركوا في البلد أوثقهم وأشفهم منزلة عندهم" .

ولم تزودنا المصادر الجغرافية الأخرى بمعلومات عن حياتهم الاجتماعية بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم وطباعهم مما يشكل لدينا صوراً من حياتهم اليومية .

ومما لا ريب فيه أن الفرس شكلوا جزءاً من سكان البحرين، منذ أن سيطرت بلاد فارس على هذا الجزء الحيوي المهم في خليجنا العربي الأشم قبل الإسلام وانتهت سيطرتهم بظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية التي حررت أجزاء واسعة في أرضنا العربية الشماء من السيطرتين الفارسية والبيزنطية، وحلت سيادة العرب محل تلك السلطة الأجنبية ونشرت الإسلام في ربوعها، فكان المجوس عبدة النيران والأسبذيين الذين كانوا يعبدون الخيل ضمن الجاليات الفارسية التي استقرت في البحرين قبل الإسلام، فضلاً عن وجود الجيلان وهم قوم من أبناء فارس انتقلوا إلى البحرين من نواحي اصطخر[17] كما توجد إشارة إلى استقرار (السنابرة) ويبدو من تسمية أحدهم

(سابور) أنهم من أصول فارسية، وكان للسنابرة خمس الأموال الواردة إلى البحرين أيام سيطرة أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي وولده أبي طاهر سليمان، إذ كان خمس الأموال لصاحب دعوتهم أي الداعي أو الإمام الناطق باسم القرامطة، وهو رجل الدين عندهم المسمى : صاحب الزمان، وثلاثة أخماس لولد أبي سعيد المذكور والخمس الباقي للسنابرة يستلمه ممثلهم أبو محمد سنبر بن الحسن بن سنبر، ووصف بأنه كان أكمل القوم وأشدهم، متمكناً من نفسه، وكانت أسرته من ولد أبيه وولده نحو عشرين رجلاً[١٨].

وشكل اليهود والنصارى جزءاً من سكان البحرين، ويشير البلخي[١٩] إلى أن البحرين أكثر يهوداً، لأنها ليست من الحجاز، ولسنا نعلم على وجه الدقة العنصر الذي ينتمي إليه اليهود والنصارى في البحرين، هل هم من العرب أم من شعوب أخرى استقرت في البحرين قبل التحرير العربي الإسلامي لها بمدة من الزمن، إذ سكتت المصادر المتوفرة لدينا عن إيضاح هذه المسألة المهمة.

وأشار الجاحظ[٢٠] إلى أن سبب استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم في ذلك، يرجع إلى التزامهم بالدين، فكان عبيدهم ومواليهم ونساؤهم يقاتلون مثل قتالهم، كما كان الرجل المسلم من العرب سواء أكان يمانياً أو بحرينياً أو جزرياً، وكذلك إباضية عمان من العرب وما كان من غير العرب مثل السجستاني وإباضية تاهرت كان هؤلاء جميعاً متساوون في القتال والنجدة وثبات العزيمة والشدة في البأس، على الرغم من اختلاف أنسابهم وبلدانهم، وفي هذا دليل على أن الذي ساوى بينهم هو التدين بالقتال . ويوضح لنا نص الجاحظ مدى تأثير الإسلام على سكان البحرين، فأصبحوا مقاتلين أشداء للذود عن قيم ومبادئ هذا الدين العظيم وحمل رسالته، وكان أهل البحرين أخوة في الإسلام مع إخوانهم العرب من أهل اليمن وجزيرة العرب وعمان، فضلاً عن إخوانهم المسلمين من غير العرب، وعلى الرغم من اختلاف المذاهب، إلا أن الجميع متساوون في القتال والنجدة لأن الدين ساوى بين الجميع بغض النظر عن أصولهم العرقية ومذاهبهم الدينية وقد

فإنها أكثر هذه البوادي أحياءً وقبائل، وأكثرها تميم حتى يتصلوا بالبحرين واليمامة، ثم من ورائهم عبد القيس" . وهكذا يتضح لنا أن قبيلة تميم اتخذت من بادية البصرة التي تمتد لتتصل مع البحرين واليمامة داراً ومستقراً لها، وكانت منازل وديار عبد القيس وراءها، أي تبدأ من اليمامة التي تشغل الحدود الغربية للبحرين وتمتد جنوباً نحو بادية عمان . وشمالاً إلى سواحل الخليج العربي، فتشمل الخط والقطيف وساحل هجر .

تعد قبيلة عبد القيس بن أفصى من القبائل العربية المعروفة التي استقرت في البحرين وارتبطت بتاريخها ارتباطاً وثيقاً، فصارت جزءاً من تاريخ البحرين السياسي والعسكري والثقافي خلال العصور الإسلامية الوسطى، وتوزعت هذه القبيلة وفروعها في أنحاء متفرقة من الرقعة الجغرافية الواسعة التي قامت عليها بلاد البحرين .

أشار الحربي[٢٦] في معرض حديثه عن المنازل الممتدة من البصرة إلى البحرين، إلى استقرار فروع من قبيلة عبد القيس ففي هجر منبران أحدهما منزله (نحم أهجر) في مملكة ابن عياش من عبد القيس، والمنبر الآخر في مملكة موسى بن عمران بن الرجاف، ومنزله جبلة أسفل هجر، وساكنها عبد القيس . وفي العقير - وهي فرضة العين وعمان والبصرة واليمن على ساحل الخليج العربي - منبر لبني الرجاف من عبد القيس، وبين جبلة والعقير مرحلتان خفيفتان، أي بحدود ١٢ فرسخاً، وتساوي المسافة بينهما بحدود ٧٢ كيلومتراً تقريباً .

ومن منازل عبد القيس التي ذكرها الحربي أيضاً : الزارة وهي من موانئ الخليج العربي، كان حاكمها أحمد بن سالم العبدي وهو رئيس أهل القطيف وسكانها عبد القيس . . ثم القليعة وهي أيضاً لأحمد بن سالم، مدينة كبيرة بها منبر، وهي مدينة بدو، يسكنها بنو سعد، والملكة لعبد القيس .

أوضح لنا الحربي عدة مدن وموانئ مهمة كانت مستقراً لقبيلة عبد القيس، واتخذت هذه القبيلة عدة ممالك، منها مملكة ابن عياش في هجر، وآل عياش حكام البحرين الذين ورد ذكرهم في شعر

لابن المقرب العيوني شاعر البحرين، وهكذا سيطرت عبد القيس سيطرة متميزة على أجزاء واسعة ومهمة من بلاد البحرين، وأقامت لها ممالك في المناطق المهمة مثل هجر وجبلة والعقير والزارة والقليعة .

ومن بطون عبد القيس المشهورة : بنو محارب الذين كانت لهم سيطرة ووجود متميز في أرجاء متعددة من البحرين، ذكر ابن الفقيه [٢٧] قرىفي البحرين عددها ٢٢ قرية كانت موزعة في بادية البحرين وعلى ساحل الخليج العربي، وبمعنى آخر أنها كانت موزعة بين أرض الصحراء وأرض الماء، وهذه القرى تعود إلى بني محارب بن عمرو بن وديعة، أي أنهم كانوا يشكلون سكانها المستقرين فيها، أما قرى أبناء عمومتهم بني عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة، فهي أضعاف هذه القرى، لكنه - مع الأسف - لم يذكر لنا أسماء تلك القرى .

وذكر الهمداني الطريق من الاحساء إلى حدود عمان، ومن منازله (الخن)، وهو موضع على يمين البحرين ودونها يبرين، والخن لبني ودعة[٢٨]، ولعلهم بنو وديعة فرع من بني محارب من عبد القيس .

رسم لنا الهمداني[٢٩] صورة واضحة لتوزيع قبائل عبد القيس، ابتدأ بمدينة البحرين الكبرى هجر، ووصفها بأنها سوق بني محارب من عبد القيس ومنازلها ما دار بها من قرى البحرين، وهذا يعني أن بني محارب كانوا منتشرين في قرى كثيرة في البحرين، ونحن نعجب أن يسمي الهمداني مدناً كبرى كالقطيف مثلاً بهذه التسمية، إذ يطلق على القطيف : "قرية عظيمة الشأن" وهي ساحل أي ميناء ساكنها جذيمة من عبد القيس وسيدهم ابن مسمار ورهيطة[٣٠]، ثم العقير من دونه وهو ساحل وقرية دون القطيف ويسكنه العرب من بني محارب، ثم السيف سيف البحر وهو من أوال على يوم، وأوال جزيرة وسط البحر .

إن ما ذكره الهمداني يعد نقلاً لما ذكره الحربي فيما يتعلق بتوزيع استقرار قبيلة عبد القيس وفروعها مثل جذيمة وبني محارب، في مدينة هجر، وهي عاصمة البحرين في عصره، وفي توابعها

التي سماها : قرىً على ساحل الخليج العربي .

وزودنا المسعودي[٣١] بصورة واضحة عن توزيع القبائل العربية في البحرين، ويهمنا بهذا الخصوص ما يتعلق بقبيلة عبد القيس وبطونها، ففي القطيف سكن علي بن مسمار وأخوته، وهم من عبد القيس، وقتل علي في المواجهة مع أبي سعيد الجنابي القرمطي الذي غزا البحرين واستولى على مدنها المهمة، على الرغم من امتلاك أهل البحرين وسائل القوة والمقاومة، خصوصاً امتلاكهم السلاح، ومن مدن البحرين : صفوان وبها بنو حفص، وهم من عبد القيس، وجواثا وكان بها العريان بن الهيثم الربعي الذي قاد العرب من عبد القيس وبني عامر بن صعصعة ومحارب بن خصفة بن قيس بن عيلان وغيرهم ضد علي بن محمد قائد الزنج الذي ظهر في البصرة وامتد نفوذه وسيطرته إلى البحرين، وتمكن من طرد صاحب الزنج من البحرين ونواحيها، ومن مدن البحرين الكبرى : هجر، وهي أعظم مدن البحرين، وكان بها عياش بن سعيد المحاربي رئيس بني محارب وحاكمها قبل احتلالها من قِبَل القرامطة، ووصف بأنه : "كان أعظمهم عدة وأشدهم شوكة" .

ومن بطون عبد القيس لكيز بن أفصى بن عبد القيس الذين سكنوا السيف وهي ضفة البحرين أي ساحلها، روى الهمداني[٣٢] شعراً جامعاً لكثير من مساكن العرب ومسالكها، من ذلك قول الأخنس بن شهاب التغلبي يذكر بعض منازل العرب من جزيرة العرب :

لكل أناس من معد عمارة

عروضي إليها يلجأون وجانب

لكيز لها البحران والسيف كله

وإن يأتها بأس من الهند كارب

أراد الشاعر بالهند هنا السند، ويقال البصرة، ويوضح لنا استقرار بطن لكيز بن أفصى من عبد القيس في ساحل البحرين .

يتضح لنا من استقرار وانتشار قبيلة عبد القيس وتوزع بطونها في أرجاء متعددة من بلاد البحرين الواسعة، أنها تمتعت بشهرة ومكانة متميزة فيها، إلى درجة أن البحرين اقترنت بذكر قبيلة عبد القيس، والنسبة إليها : العبقسي

وقد أشار ابن الفقيه[٣٣] إلى توزيع القبائل العربية في بلاد العرب بقوله : "واليمامة لبني حنيفة والبحرين لعبد القيس والجزيرة لبني تغلب" فالبحرين اقترنت بقبيلة عبد القيس وعرفت واشتهرت بها أكثر من غيرها .

أما ديار بكر بن وائل فقد امتدت من اليمامة إلى البحرين إلى سيف (ساحل) كاظمة إلى البحر، ثم إلى أطراف سواد العراق فالأبلة فهيت[٣٤] وهذا يوضح أن ديار بكر بن وائل كانت واسعة الامتداد بحيث شملت اليمامة والبحرين حتى ساحل كاظمة على الخليج العربي - وهو الحد الفاصل بين العراق والبحرين - ثم امتدت داخل سواد العراق في الأبلة إلى هيت . وهذا الحصر غير صحيح وغير دقيق .

ومن القبائل العربية التي استقرت في البحرين قبيلة الأزد العربية المشهورة، كان موطنها الأصلي اليمن ثم هاجرت إلى سواحل الخليج العربي والهلال الخصيب فأجزاء أخرى من بلاد العرب كانت البحرين إحداها[٣٥]، وأورد الهمداني[٣٦] قول بعض آل سعد بن ملكيكرب تبع وذكر منازل من خرج من اليمن في سائر جزيرة العرب وغيرها :

وأزد لها البحران والسيف كله
وأرض عمان بعد أرض المشقر
ومنا بأرض الغرب جند تعلقوا
إلى بربر حتى أتوا أرض بربر

ثم أورد شعراً لعبد الله بن عبد الرحمن الأزدي يذكر فيه افتراق الأزد، ويوضح لنا الشعر في البيتين أولاً استقرار قبيلة الأزد في البحرين وساحل الخليج العربي كله، فضلاً عن استقرار الأزد في أرض عمان بعد أرض المشقر،وهي جزء من البحرين في ساحل هجر على الخليج العربي، كما أن بعض الأزد هاجروا إلى الساحل الشرقي لأفريقيا التي سماها الشاعر أرض الغرب وأرض بربر .

ومن سواحل الخليج العربي التي استقر فيها الأزد، الزارة الميناء المشهور، كان بها الحسن بن العوام من الأزد[٣٧]، وذلك أثناء هجوم الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي على البحرين ونواحيها .

استقرت قبائل عربية أخرى في بلاد البحرين، ففي صحراء يبرين، وهي أرض منقطعة بين الرمال، لها طريق إلى اليمامة وإلى البحرين في الرمل، سيطرت قبيلة قشير عليها، ثم أخرجت القرامطة

بني قشير عنها[٣٨]، وبذلك استقرت قبيلة قشير في الجزء الشمالي الشرقي من الربع الخالي، المسمى : رمل بني سعد، ويفصل يبرين عن البحر الرمال، وهي شرقي اليمامة باتجاه عمان .

وفي جزيرة أوال استقر العرب من بني معن وبني مسمار وخلائق كثيرة من العرب[٣٩]. ونرجح أن الكثافة السكانية في هذه الجزيرة كانت كبيرة لوقوعها على الخليج العربي، ولأنها كانت مركزاً للنشاط البشري الاقتصادي، كونها إحدى مغاصات اللؤلؤ، فضلاً عن نشاطها التجاري، لأنها كانت الجزيرة الكبرى التي سميت البحرين قديماً باسمها : جزيرة أوال .

ومن القبائل المشهورة التي استقرت في البحرين قبيلة بني تميم، وقد ذكرنا وصف الاصطخري وابن حوقل[٤٠] لبادية البصرة، التي كانت أكثر البوادي أحياءً وقبائل، وأكثرها تميم حتى يتصلوا بالبحرين واليمامة، ومن ورائهم عبد القيس . ولاشك أن بادية البصرة تتميز بسعتها وامتدادها الجغرافي حتى تتصل بأرض البحرين واليمامة في بلاد نجد، لأن البحرين من نجد .

توزعت قبيلة تميم وفروعها وبطونها في أرجاء متعددة من البحرين، ففي منازل الطريق من البصرة إلى البحرين، كانت أول مدينة يتم دخولها منبر بتاج، وتبعد أربع عشرة مرحلة، ساكنها بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، ثم الاحساء وهي لبني سعد، وفي يبرين منبران، ساكنها بنو سعد بن زيد مناة، ومنبر بالفيل لبني جعدة، ومنبر بالقليعة وساكنها بنو سعد[٤١] .

وكانت جبلة ضمن منازل الطريق من البصرة إلى البحرين، لكن الاصطخري[٤٢] ذكر حصن جبلة في آخر وادي ستارة، الواقع بين بطن مُر وعسفان عن يسار الذاهب إلى مكة، وبجبلة كانت وقعة لبني تميم في بكر بن وائل . ولم يحدد لنا الاصطخري تاريخ تلك المعركة وأسبابها واكتفى فقط بانتصار بني تميم على بكر بن وائل .

ومن منازل بني تميم في البحرين الاحساء، وهي منازل ودور لبني تميم ثم لسعد من بني تميم، وكان سوقها على كثيب (مرتفع) يسمى : الجرعاء، تتبايع عليه العرب[٤٣]، ثم الستار

ويسمى : ستار البحرين وهو منادى بني تميم فيه متصلة البيضاء[٤٤] .

زودنا لغدة الأصفهاني[٤٥] بمعلومات قيمة عن قبيلة تميم وبطونها وديارها التي استقرت فيها في البحرين وشبه الجزيرة العربية وامتداد وتداخل تلك الديار ضمن الإقليمين ونواحيهما، فذكر أن أعظم بلاد تميم هي الوشم، والدهناء والجواء والصمان والدو والسيدان والهاه وغر ويبرين وفلج وفليج والحزن، وهذه المناطق تتداخل ضمن بادية شبه جزيرة العرب وبادية البصرة التي تمتد نحو البحرين، كما يتضح من تسميات الدهناء ويبرين والفلج وهو حفر الباطن المعروف بـ : حفر أبي موسى الأشعري وهو وادٍ عظيم يشق أسفل نجد من قرب الدهناء ويمتد إلى الزبير في العراق، والفليج أيضاً وادٍ تصب مياهه من السيول في حفر الباطن، وهما فليجان الشمالي يقع شمال فلج (الباطن) والجنوبي يقع جنوبه، ويفيض سيلهما في المكان الذي يقع فيه الحفر .

وبخصوص إحدى بطون تميم، ذكر الأصفهاني[٤٦] أيضاً عن سعد بن زيد مناة أن أقصاها يبرين قرب عمان، ينزله منهم بنو عوف بن سعد، وناس من بني عوف بن كعب، وأخلاط سعد، وهؤلاء كلهم متصلون إلى الاحساء التي تقع قريباً من هجر على مسافة ميلين (أكثر من ٣ كيلومترات) ينزلها أخلاطهم، وبها سيدهم وعاملهم إبراهيم بن موسى .

ويتضح لنا امتداد بني سعد بن زيد مناة إحدى بطون تميم في رقعة جغرافية واسعة من يبرين إلى الأحساء ويمثل الأخير إقليماً واسعاً يمتد على الساحل الغربي للبحر العربي الشرقي من عمان إلى قرب كاظمة، وقصبته هجر، التي كانت تطلق على الاحساء كلها، ويبرين ما يزال معروفاً في غرب الاحساء مشهور فيه مياه ونخيل كثيرة .

وبخصوص بني مالك بن سعد من بطون تميم أيضاً، ذكر الأصفهاني[٤٧] أنهم متصلون إلى سفوان من يبرين، والمسافة بينهما أكثر من مسيرة شهر، وعرضهم من البحرين إلى الدهناء وأما بنو عبد الله بن دارم فليس لهم في البادية إلا (القرعاء) وهي ماءة أسفل من الصمان تقع بينه وبين الدو[٤٨] . وكانت القرعاء لرجل من بني تيم الله بن ثعلبة يقال له : الأقرع .

وذكر السعودي في ديار بني سعد من تميم : الظهران والاحساء (إقليم) وكان بها بنو سعد من تميم[٤٩] . ويعني ذلك أن الظهران كانت مدينة من مدن البحرين، وتقع اليوم غرب مدينة (الخبر) السعودية الساحلية على بعد عشرة كيلومترات منها .

عرفت واحة يبرين بأنها من ديار بني سعد بن زيد مناة بن تميم، وأطلق اسم يبرين على الجزء الشمالي الشرقي من الربع الخالي نسبة إلى تلك الواحة الواقعة على ذلك الطرف، كما يطلق على هذا الجزء أيضاً : رمل بني سعد نسبة إلى قبيلة بني سعد بن زيد مناة بن تميم، التي سكنت تلك المنطقة، وامتدت ديارها إلى قطر وعمان والساحل الغربي للخليج العربي حتى البصرة[٥٠] .

وذكر الهمداني منازل بني تميم دون تحديد بطونها، وهي : النقار وكاظمة ومسلحة والنقيرة والسودة ووادي أبي جامع والجاشرية والقرنتان وهي ضمن أرض البحرين[٥١]، ونرجح أن هذه المنازل كانت في بادية البصرة التي تمتد وتتداخل مع أرض البحرين، وهي منازل تميم المشهورة .

تبين لنا مما سبق أن القبائل العربية استقرت في البحرين منذ عصور قديمة سبقت ظهور الإسلام، وانتشرت على أرض بلاد البحرين الواسعة الامتداد، وقد أوضحنا في بداية هذه الفقرة ذلك الانتشار بين العراق وبلاد الشام واليمن، وكانت ديار القبائل العربية في أكثر من إقليم وقسم من أقسام بلاد العرب متجاورة ومتداخلة ومختلطة بعضها ببعض، ذكر الهمداني[٥٢] في حديثه عن الخضرمة عاصمة اليمامة وهي : جو الخضارم أنها مدينة وقرى وسوق فيها بنو الأخيضر بن يوسف، وهي دار بني عدي وبني عامر بن حنيفة ودار عجل بن لجيم وديار هوذة بن علي السحيمي الحنفي، وهي أول اليمامة من قصد البحرين . فهذا يدل على أن تلك القبائل كانت على اتصال مستمر مع البحرين وعربها من أبناء القبائل العربية بحكم التجاور وما يتبع ذلك من مصالح مشتركة، ضمن ديار العرب الواحدة . التي تقاسمت الاستقرار والرعي والعمل التجاري والمصالح الأخرى بين قبائلها المنتشرة في ربوعها .

المحور الاقتصادي

تشكل الحياة الاقتصادية عصب النشاط البشري للسكان في أي مجتمع وخلال العصور التاريخية المختلفة، إذ لابد من توافر الأرض أي الوطن الذي يستقر فيه السكان، ويمارسون نشاطهم الحياتي اليومي الذي يوفر لهم أسباب العيش واستمرار الحياة. فالاقتصاد هو عصب الحياة لكل المجتمعات، ومن المؤسف أن المصادر الجغرافية لم تعن كثيراً في وصف الحياة الاقتصادية في البحرين ولم تزودنا إلا بمعلومات مقتضبة وموجزة لبعض أوجه النشاط الاقتصادي، ومع ذلك توجد نصوص ذات أهمية في إعطاء صورة موجزة عن ذلك النشاط الذي مارسه سكان البحرين خلال المدة موضوع البحث.

لقد كان لموقع الخليج العربي عموماً وصلاته مع العالم، وموقع البحرين خصوصاً على الخليج العربي، أهمية متميزة انعكست على تاريخ البحرين خلال العصور الإسلامية، لأنه يمتد من كاظمة شمالاً إلى عمان جنوباً بمحاذاة سواحل الخليج العربي الغربية، وهي السواحل الشرقية لشبه جزيرة العرب، وكان لهذا الموقع أثره المتميز في قيام الموانئ والفرض التي مارست نشاطاً تجارياً مع مختلف دول العالم، وكان لذلك النشاط مردوده الاقتصادي في تطور تلك الموانئ وتوسعها وممارستها النشاط التجاري مع مختلف أنحاء العالم والاختلاط بمجتمعاتها المتنوعة.

اشتهرت البحرين بعدد من الموانئ في ساحل هجر مدينة البحرين الكبرى، أي عاصمتها، وعرفت بأنها: أعظم مدن البحرين - كما ذكرنا، منها العقير وهي فرضة أي ميناء العين وعمان والبصرة واليمن على ساحل البحر، أي ساحل الخليج العربي، ثم الزارة وهي فرضة أي ميناء من موانئ الخليج العربي[٥٣]، وهذا يعني وجود العديد من الموانئ التابعة للبحرين، وهي ذات نشاط

تجاري متميز يوفر للبحرين الكثير من الواردات المالية .

ويشير الهمداني[٥٤] إلى موانئ البحرين فيبدأ بهجر مدينة البحرين العظمى، وهي سوق بني محارب من عبد القيس، والقطيف وهي قرية عظيمة الشأن وساحل ثم العقير من دونه وهو ساحل وقرية دون القطيف ثم السيف سيف البحر ولعله سيف أي ساحل الخط، وهو يبعد عن جزيرة أوال مسيرة يوم، أي مرحلة تقريباً، وهي تساوي ٦ فراسخ، أي بحدود ٣٦ كيلومتراً لأن اليوم والمرحلة متساويان عند الجغرافيين[٥٥] .

عرفت الأسواق في البحرين، واشتهرت كثير من كورها ونواحيها بوجود الأسواق فيها، ولاشك أنها كانت مراكز تجارية تميزت بنشاطها الاقتصادي من البيع والشراء والمعاملات الأخرى، ورد وصف هجر مدينة البحرين العظمى على أنها من أسواق العرب القديمة[٥٦]، وهي سوق بني محارب من عبد القيس ومنازلها ما دار بها من قرى البحرين[٥٧] ووصف ابن الفقيه[٥٨] معاملات أهل هجر بقوله : "وأهل هجر يكتبون في شروطهم اشترى جميع الدار بمصورها أي بحدودها" .

ومن أسواق البحرين : الاحساء وهي منازل ودور لبني تميم، وكان سوقها على كثيب يسمى الجرعاء تتبايع عليه العرب[٥٩] . ثم الستار ويعرف بـ : ستار البحرين في الطريق من هجر إلى البصرة، وهو منادى بني تميم فيه متصلة البيضاء[٦٠]، وعرفت المشقر بمنطقة الاحساء بسوقها قديماً .

عرفت البحرين بمنتجاتها الزراعية خاصة، وأبرزها التمور، فقد اشتهرت الكثير من نواحيها وقراها بكثرة النخيل ووفرة أنواع جيدة من التمور، وأفاض الجغرافيون بذكر تلك المناطق وشهرتها بكثرة النخيل، في مقدمتها هجر البحرين التي أصبحت اسماً شاملاً للبحرين فمن مناطقها المشهورة بالنخيل وإنتاج التمور القطيف وهو موضع نخل وقرية عظيمة الشأن، ثم العقير وهو ساحل وقرية وبه نخل ثم الستار وهو ستار البحرين وكان بها نخل، ومن مياه ستار البحرين ثيتل والنباج والنباك وكل فيه نخل كثير وماء يقال له قطر، والنباج بلاد كثيرة القرى وتسمى : نباج بني عامر، وهي عيون تنبج بالماء ونخيل وزروع[٦١] .

وصف المقدسي[٦٢] الاحساء - وهي قصبة هجر وتسمى البحرين، بأنها كبيرة كثيرة النخيل آهلة معدن الحر والقحط، ولاشك أن هذا الوصف يوضح لنا أن الاحساء كانت عاصمة هجر ومركزها الإداري وسميت البحرين فأصبح اسمها هو الغالب على تسمية البحرين، وشبه المقدسي بعض مدن عمان بمدينة هجر لقربها منها، مثل حفيت التي وصفها بأنها كثيرة النخيل من نحو هجر، الجامع في الأسواق، ودبا وجلفار وهما من نحو هجر قريبتان من البحر . وتشتهر عمان ومدنها الكثيرة بوفرة التمور وهي بذلك تشابه مدن البحرين في هذا المجال ومنها هجر .

والمشقر بالبحرين نحو هجر وبه نخل لا يبرح الماء في أصوله[٦٣]، والمشقر من مدن البحرين الشهيرة .

اشتهرت الزارة وهي ميناء على الساحل الغربي للخليج العربي بكثرة النخيل ووصفت مصادر غلتها بأنها من النخيل والسمك، كما وصفت الغيل بأنها منبر لبني جعدة، وهي وادٍ من نخل، اشتهرت بشدة الحرارة، وبها تمر يحمل إلى مكة يقال له الصفري، كان يتحمل النقل في البحر لصلابته، وصف بأنه : "في الصيف يمضغ مثل الكندر وفي الشتاء ينشق كالزجاج" .

قال الشاعر:

كأنها لما تولت تزمر

نخل من الصفري دوح موقر[٦٤]

ووصف الهمداني[٦٥] الصفري بأنه سيد التمور، وذلك أنه يغرق في البحر فيماث سائر التمران ماخلا الصفري، ويعدد أنواع التمور المنتجة في الفلج وهو حفر الباطن، ومنها البرني وصفه بأن له إهالة وجميل .

وعن يمين البحرين ودونها يبرين والخن موضع فيه نخل كثير لبني ودعة، ويبرين نخل وحصون وعيون جارية وغير جارية وسباخ[٦٦]، وترتبط يبرين - الواقعة شرقي اليمامة وهي على محجة عمان إلى مكة - بطريق إلى اليمامة وإلى البحرين في رمل، وهي أرض منقطعة بين الرمال وهي ذات نخل كثير من الصفري والبرني وذات زرع قليل[٦٧]، وضرب المثل في يبرين لبعدها حتى قيل : "لست بمعجز لنا ولو بلغت الشحر ولو حالت دونك يبرين"[٦٨] .

وضرب المثل في البعد كذلك بخصوص صنعاء، حتى قيل : لابد من صنعا وإن طال السفر، وعلى الرغم من بعد يبرين ووصفها بوقوعها في منطقة منقطعة بين الرمال، فقد حباها الله سبحانه وتعالى بنعمة وفيرة من التمور الجيدة المشهورة - كما ذكرنا - وهي : الصفري والبرني كما وجدت فيها زراعة يسيرة اعتمدت على مياه العيون التي وفرت لها المياه .

لقد اشتهرت البحرين بتمورها فكانت هجر أكبر أعمال البحرين وهي أكثر تموراً[٦٩]، وذكر ابن خرداذبة شهرة البحرين بوجود النخيل[٧٠]، ويقول : "ولهم بُسر يسمى النابجي إذا انتبذ وشرب غيَّر عرقه البياض حتى يصفرّ"[٧١] .

تميزت البصرة بشهرة خاصة لكثرة نخيلها وأنواع تمورها . ذكر الجاحظ إجراء إحصاء لأصناف نخل البصرة في أيام الخليفة المعتصم بالله العباسي، فبلغت ثلاثمائة وستين ضرباً من مغل معروف وخارجي موصوف وبديع غريب مع طيب عجيب، هذا باستثناء نخيل الكوفة ومصر واليمامة والبحرين وعمان والمدينة المنورة وخيبر والأحواز وفارس وكرمان[٧٢] .

حدد ابن الفقيه[٧٣] مناطق إنتاج التمور في بلاد العرب بقوله : "وريف الدنيا من التمر ما بين اليمن إلى البصرة وهجر" .

تشكل التمور أهمية في وطننا العربي الكبير وتشتهر كثير من أقطاره بتمورها، ونظراً لما تشكله هذه الثروة التي حباها الله سبحانه وتعالى من أهمية وقيمة، فقد أصبحت للنخلة مكانة متميزة في تراثنا العربي الإسلامي، إذ ورد ذكرها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، روى لنا المقدسي[٧٤] حديثاً مشهوراً ومتداولاً يبين لنا مكانة النخلة والعناية بها من قِبَل المسلمين لأنها نعمة من نعم الله التي أكرمنا بها، إذ يقول : "حدثنا القاضي الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد قال حدثنا موسى بن الحسين قال حدثنا شيبان بن فروخ قال حدثنا مسرور بن سفيان التميمي عن الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي بن أبي طالب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم وليس من

الشجر شجرة تلقح غيرها، وأطعموا نساءكم إذا ولدن الرطب فإن لم يكن رطب فالتمر . . . الحديث" .

لم تزودنا المصادر الجغرافية بمعلومات كافية حول الزراعة والمنتجات الزراعية، وصف الاصطخري جزر الخليج العربي وهي لافت وخارك وأوال وغيرها من الجزائر المسكونة، بقوله[٧٥]: "وبها مياه عذبة وزرع وضرع"، دون أن يحدد أنواع المزروعات والحيوانات فيها، في حين وصف ابن خرداذبة[٧٦] مدينة البحرين بأنها تقع على شط العرب وأهلها لا زرع لهم ولهم نخل وإبل . ولعله قصد بتلك المدينة جزيرة أوال الجزيرة الرئيسية في أرخبيل البحرين .

أما ما يتعلق بالحيوانات والثروة الحيوانية فالمعلومات عنها قليلة ومقتضبة لا تعدو إشارات محدودة، ذكر الهمداني[٧٧] أن جزيرة أوال في وسط الخليج العربي وفيها جميع الحيوان كله إلا السباع . وكانت الجمال من الحيوانات التي استخدمها العرب في الصحراء لنقل أمتعتهم وكذلك في نقل البضائع التجارية عبر الصحراء على طرق القوافل، ذكر ابن خرداذبة[٧٨] في وصف أهل البحرين أنهم لا زرع لهم ولهم نخل وإبل، قال أعرابي :

رمى به في موحش القفار
بساحل البحرين للصَّفار

وذكر ابن الفقيه[٧٩] أن المسافة بين هجر مدينة البحرين والبصرة مسيرة خمسة عشر يوماً كانت تقطع على الإبل . التي عرفت بـ : سفينة الصحراء، وهي تتحمل العطش ومصاعب الطرق خصوصاً الصحراوية منها . وكان أهل البحرين يعتزون بجمالهم ويعتنون بتربيتها ويهتمون بالأصيلة منها، التي يبلغ ثمنها سعراً عالياً، نقل لنا ابن الفقيه[٨٠] حكاية عن أناس لم يذكر اسمهم بهذا الخصوص، إذ يقول : "قال بعضهم : قدمنا البحرين فلحقنا أعرابي على ناقة له صغيرة قد أكل الجَرَب جنبها ومعنا إبل لم ير الناس مثلها، فقلنا يا أعرابي أتبيع ناقتك ببعض هذه الإبل قال والله لو أعطيتموني بها جميع إبلكم كلها ما بعتكم، قلنا فلك مائة دينار فأبى فقلنا ألف دينار فأبى، ونحن في كل ذلك نهزأ به، فقال لو ملأتم جلدها ذهباً ما بعتكم . قلنا فأرنا من